TİASAD

Türk & İslam Dünyası Sosyal Araştırmalar Dergisi
The Journal of Turk & Islam World Social Studies

Yıl: 7, Sayı: 25, Haziran 2020, s. 262-274

Ala ELHİLAL

elhilalala1@gmail.com

İBN HAZM EL-ENDELUSÎ VE TAVKU-'L HAMÂME Fİ'L İLFETİ VE'L-ÜLLÂF EDLİ ESERİ ANALİZİ

Özet

Endülüs medeniyetinin en önemli şahsiyetlerinden olan İbn. Hazm'ın ilmî kişiliğine denk edebî bir kişiliği de vardır. Fıkıh, hadîş, dinler tarihi, mezhepler tarihi, felsefe, mantık ve soybilimi alanlarında seçkin bir âlim, güçlü bir cedelci ve büyük bir düşünür olarak meşhur olduğu kadar; edip, eleştirmen ve soylu bir şair olarak da meşhurdur. Sanat inceliğiyle düşünce gücünü bir arada toplayan nadir şahsiyetlerdendir. Bu çalışma İbn. Hazm'ın Tavku' L-Hamâme fî 'L-İlfeti ve' L Üllâf adlı eserinin bilimsel yönden incelenmesidir. İbn. Hazm en tanınmış alimlerinden biri olup Batılılar onu daha çok karşılaştırmalı din alanında tanımışlardır. Bu konuyu , İbn. Hazm'ın çalışmalarının tanıtımına katkıda bulunmak amacıyla seçtik İki bölümden oluşan çalışmanın birinci bölümünde İbn . Hazm döneminde Endülüs'ün siyasi, sosyal ve ekonomik yapısı kısaca tanıtılmış ve İbn. Hazm 'ın hayatı , edebî yönü, hocaları, çalışmaları ve talebeleri hakkında bilgi verilmiştir. İkinci bölümde ise Tavku' L –Hamâme adlı eseri ele alınmış, eserin yazılma nedeni , konuları , dil ve metodu , Endülüs edebiyatı içindeki yeri üzerinde durulmuştur ve tanıtılmıştır.

Anahtar Kelimeler:İbn Hazım, Tavku' L-Hamâme, Endülüs

ANALYSIS OF İBN HAZM AL ANDALOUSY AND HIS MASTERPIECE TAOUK AL HAMAMA FIL ULFATY WAL ULLAF .

Abstract

Ibn-Hazm is one of the most important figures of the Andalusian civilization. He also has a literary personality equivalent to his scientific personality. As much as he was famous as a distinguished scholar, a powerful critic and great thinker in the fields of fiqh, hadith, the history of religions, the history of sects, philosophy, logic and genealogy; he was also famous as a critic and noble poet. He is one of the rare

figures that combines the delicacy of art and power of thought.. This essay is considered a scientific study of İbn.Hazzam 's masterpiece Tavku'l Hamame fil ülfeti vel üllef ,He is one of the most prominent scientists of Andalusia and the western scientists knew him mainly in the domain of comparative religion. We decided to choose this topic mainly because İbn Hazzam's works haven't been given the value they deserve and not enough definitions have been made about him. This essay consists of two parts and in the first part a brief description is made about Andalusia's political, Economic, and social construction, and some information is given about his life, literature, Teachers and apprentices. The second part deals with why Tavku 'l Hamame was written ,it's subjects language & method ,and at last andalusian literature is defined.

Keywords:İbn Hazzam, Tavku'l Hamame, Andalus

ابن حزم الأندلسي

نقد وتحليل كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف

مقدمة

إن أهمية الأندلس وشمال إفريقيا لا تقتصر في رأينا على مجرد كونها طريقاً لانتقال الفكر العربي الإسلامي لأوروبا ، فالأندلس وشمال إفريقيا (أو الغرب الإسلامي) كان لهما دوراً هاماً في إحياء وتطوير الفكر الإسلامي سواء في بداية نشأة الفكر العربي في الغرب الإسلامي أو في المشرق الإسلامي .

ففي الحياة السياسية يعد تاريخ الدولة الإسلامية في الأندلس من أطول وأخصب دول الإسلام عمراً وعبرة وأبلغها عظمة، وأكثرها دروساً وفوائد، فقد امتدت دولة الإسلام في الأندلس قرابة ثمانية قرون مرت خلالها الأندلس بمراحل وأطوار، بين قوة وضعف، ووحدة وتفرق.¹

عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط3، دار القلم، دمشق، 1987، ص147

التعريف بابن حزم

هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد مولى². وهو أول من دخل المغرب منهم.

أبو محمد الأندلسي , القرطبي الحافظ المتكلم الأديب الوزير الظاهري صاحب التصانيف , ولد أبو محمد في قرطبة سنة 384هـ/994م , وعاش في الأندلس , اشتغل بالعلوم الشرعية النافعة وبرز فيها وفاق أهل زمانه وصنف الكتب المشهورة³.

كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه يقال لهم " الحزمية " وكانت له ولأبيه من قبله رئاسة الوزارة وتدبير المملكة , فزهد فيها وانصرف إلى العلم والتصانيف والتأليف , وقد كان من أوائل الباحثين فقيهاً حافظاً يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة⁴.

نسبه: اختلفت أقوال العلماء والفقهاء في نسب ابن حزم الأندلسي -رحمه الله- على قولين رئيسين:

1: أنه فارسي الأصل , وأن جده الأقصى في الإسلام يزيد بن مولى أبي سفيان وجده تولوا الخلافة أول ما دخل الأندلس.

2: أنه أندلسي الأصل وقد قال بعض المستشرقين بذلك مثل رينهاردت دوزي , وجولد تسيهر وبروكلمان وغيرهم.

والصحيح أنه فارسي الأصل , وقد ذهب إلى هذا القول المؤرخ الأندلسي ابن حيان مستنداً على ذلك بأبيات من قول ابن حزم تثبت أنه فارسي الأصل وبصرف النظر على أن يكون فارسياً أم عربياً أم إسبانياً , وسواء أكانت جذوره مسيحية أو عربية أو غير ذلك فإن ابن حزم هو نتاج ثقافة عربية إسلامية في الأندلس فهو يُعدّ -وبحق- من أبرز رجالات الفكر في الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس وأغزرها إنتاجاً , كما أنّ اللغة التي كتب بها ابن حزم هي اللغة العربية لغة القرآن الكريم ولغة الحضارة العربية الإسلامية , ويمثل ازدهارها وتطورها في عهد الأندلسيين , وقد قال فيه الشيخ أبو زهرة في هذا الشيء " علا ابن حزم بعلمه ولم يعلّ بنسبه"⁵.

ابن بشكول, الصلة في تاريخ أئمة الأندلس, مكتبة الحانجي , القاهرة 1994, ص395.

ابن كثير, البداية والنهاية , دار الفكر , بيروت, ج12, 1986, ص91-92.

خير الدين الزركلي, الأعلام , دار العلم للملايين ط15, 2002, ص254.

محمد أحمد أبو زهرة, الإمام ابن حزم حياته وعصره وآراؤه وفقهه, دار الفكر العربي , القاهرة , 1425هـ, ص20.

نشأته:

نشأ ابن حزم في بيت عز وجاه ومال ورفاه , وفي عيش رغيد هنيء وحياة هادئة ناعمة , فقد كان أبوه أحمد بن سعيد بن حزم من كبراء قرطبة وقد كان وزيراً للمنصور أبي عامر , وفي ظلال نعماء أبيه تربى ابن حزم , وقد جاء والده الوزير أحمد أفضل المربين –وهن من النساء –إلى قصره ليشرّفن على تربية ولده وتعليمه وهو يشير إلى هذا الأمر في كتابه طوق الحمامة في الألفة والألاف حيث يقول " ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري , لأنني رُبيتُ في حورهن , ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن وهن علمنني القرآن وروينني كثيراً من الأشعار ودربنني على الخط "6.

وفاته:

توفي الإمام أبو محمد ابن حزم –رحمه الله- في بلدة لبلّة⁷ , وكانت وفاته وفاته آخر النهار من يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر شعبان سنة 456هـ , وكان عمره آنذاك اثنتين وسبعين إلا شهراً⁸.

شيوخه وتلاميذه

تتلمذ ابن حزم على يد عدد كبير من العلماء , فأخذ عن بعضهم علوماً كثيرةً ولعل أهم وأبرز من أخذ عنهم ابن حزم هو أبو علي الحسين بن علي الفاسي الذي قال فيه " ما رأيت مثله جملةً عالماً وعملاً , ودينياً وورعاً , ونفعني به الله كثير أ , وعلمت موقع الإساءة , وقبح المعاصي "9.

ومن أشهر الذين تتلمذ على أيديهم:

*-أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي فقد أخذ عنه النحو والحديث والفقه واللغة والكلام.

*-يحيى بن مسعود وكان عالماً جليلاً كبيراً حبيب إليه العلم , وقربه من العلماء ووضع على أول الطريق.

*- حسان بن مالك بن أبي عبده الوزير من الأئمة في اللغة والأدب¹⁰

*- عبدالله بن يحيى بن أحمد , وهو أستاذ ابن حزم في الفقه .

*- أبو الخيار – مسعود بن سلمان مفلت – وقد تلقى على يديه أصول الفقه الظاهري .

ابن حزم الاندلسي , طوق الحمامة في الألفة والألاف , تح د. احسان عباس , المؤسسة العربية للدراسات والنشر , بيروت , لبنان , ط2⁶ 1987, ص166,

انظر : ياقوت الحموي , معجم لبلّة: مدينة قديمة غربي الأندلس , وهي من المدن القديمة الكبرى تقع غربي إشبيلية وقرطبة في إسبانيا⁷ البلدان , دار صادر , بيروت , ط2, ج2, 1995م, ص10

علي بن بسام الشنتريني , الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة , تحقيق د. احسان عباس , الدار العربية للكتاب , ليبيا , تونس , ج1, ط1,⁸ 1981م, ص168

ابن حزم الأندلسي , طوق الحمامة , ص173⁹

أبو جعفر الضبي , بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس , مطبعة روكس المسيحية , 1884م, ص25¹⁰

تلامذته:

لم تذكر كتب التراجم عدداً كبيراً من تلامذة ابن حزم , ويعود السبب في ذلك لتحريض علماء عصره ضد بسبب مخالفته لهم في المذهب , وحدة وسلطة لسانه في مناقشتهم ومجادلتهم , والسبب الآخر هو الاضطهاد السياسي والقتل والتعذيب والتشريد الذي تعرض إليه ابن حزم , ومما لاشك فيه أن ابن حزم كان موضع حسد وغيره من بعضهم نظراً لغزارة علمه , وسعة ثقافته , لذلك منعوا عوامهم من الاصغاء إليه . ومن أهم الذين تتلمذوا على يدي ابن حزم - كما وردت لنا من كتب التراجم - :

*- أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الحميدي

*- ابنه أبو رافع الفضل بن علي بن حزم .

* مؤلفات ابن حزم

لقد سبق وأن ذكرنا أن ابن حزم قد نبذ أمر السياسة وراء ظهره بعد أن خاض غمارها وعلى الرغم من تلك المكانة العالية التي كان يحتلها هو وأبيه فقد علم ابن حزم أن السياسة مضيعة للوقت , لذلك لم يولها اهتماماً كبيراً , وبعد ذلك تفرغ للعلم والتأليف , وأكب على ذلك , وقد أحصى ابنه الفضل (أبو رافع)

مؤلفات أبيه إذ هي قرابة أربعمائة مجلد في ثمانين ألف ورقة , هذا مع جودة مصنفاته.¹¹

وابن حزم – كما ذكر مترجمون – متقن فلم تفق مصنفاته على علم واحد بل تعددت مؤلفاته في عدة فنون , فكانت متنوعة بين الاعتقاد والتفسير , والحديث والأثر , والفقه والأصول , واللغة والأدب , والانساب والتاريخ وغيرها من الفنون . لذلك يعتبر ابن حزم من أكبر علماء الإسلام تأليفاً وتصنيفاً , فقد خلف وراءه مكتبة موسوعية ضخمة , وثقافة كبيرة , ضمت مجلداتها كافة أنواع العلوم .

ويعد ابن حزم من كبار رجال الجدل المشهورين بمناقشتهم الجدلية ومساجلاتهم الكلامية مع أهل الفرق الأخرى من معتزلة وأشاعرة وشيعة وغيرهم , ومع أهل العقائد الأخرى من يهود ونصارى وملحدين ومشركيين ودليل ذلك ما خلفه لنا ابن حزم من مؤلفات مشهورة في هذا الميدان مثل كتاب (الفصل) الذي يعد من أعظم الكتب الجدلية في ذلك الوقت , ولهذا السبب اعتبره علماء الغرب مؤسس علم مقارنة الأديان . وسوف أذكر هنا أشهر مؤلفات ابن حزم المطبوع منها :

1. البيان عن حقيقة الإيمان

2. التلخيص لوجوه التخليص

3. حكم من قال أن أرواح أهل الشقاء معذبة إلى يوم الدين

المقري التلمساني , نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب , تحقيق يوسف البقاعي , ط1 , دار الفكر , بيروت 1998م , ج2 , ص 239¹¹

4. الرسالة الباهرة في الرد على أهل الأهواء الفاسدة

5. المفاضلة بين الصحابة

6. كتاب الجامع في كتابه المحلى

7. نجاسة الكلب

8. المحلى بالآثار في شرح المجلى : وهذا الكتاب من أشهر كتبه , فإذا ورد اسم ابن حزم ارتبط اسمه بالمحلى

9. أسماء الخلفاء المهديين والأئمة , أمراء المؤمنين وأسماء الولاة

10. أمهات الخلفاء

11. جمل فتوح الإسلام

12. جمهرة أنساب العرب

13. طوق الحمامة في الألفة والألاف : وهو كتاب فلسفة الحب والمحبين في التحليل النفسي والأدب .

مذهب ابن حزم الفقهي :

عُرف ابن حزم -رحمه الله - بظاهريته بقوله واعلموا أن دين الله ظاهر لا باطن فيه , وجهر لا سر تحته , كله برهان لا مسامحة فيه , واتهموا -الظاهريين -كل من أراد أن يتبع بلا برهان وكل من ادعى أن للديانة سراً وباطناً , فهي خرافات لا أصل لها . لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكتف كلمة ولا كان عنده رمزاً ولا باطناً .

وقد كان الدافع الرئيسي لتبني ابن حزم هذا المذهب الظاهري هو انحراف عدد من العلماء والفقهاء الذين التقوا حول بعض الملوك ليفتوا لهم فتاوى توافق حكمهم وأهواءهم , فكانوا لافي ذلك يستخدمون القياس , لذلك رفضه ابن حزم , والدليل على أن ابن حزم كان يعتمد على الأخذ بظاهر النصوص من الكتاب والسنة وما أجمع عليه المسلمون هو قوله:

أشهد الله والملائكة أنني لا أرى الرأي والمقاييس دينا

حاش لله أن أقول سوى ما جاء في النص والهدى مستبيناً

إذا ومن خلال ما تقدم من هذه الأبيات نرى أن ابن حزم لم يجز القياس والاجتهاد في الأحكام , وقال إن الأصول هي الكتاب والسنة والاجماع فقط , ومنع أن يكون القياس أصلاً من الأصول , وذكر أن أول من استخدم القياس هو إبليس , وظن أن القياس خارج عن مضمون الكتاب والسنة.

نقد وتحليل كتابه طوق الحمامة في الألفة والألاف:

-التعريف بالكتاب

هو كتاب في التحليل النفسي و في شبكة العلاقات الإنسانية التي تظهر بين البشر.

الألفة لغةً : الأليف.

الألاف : جمع آلف , وفلان قد آلف هذا الموضع (بالكسر) يألفه إلفاً¹²

الألفة اصلاً : هو اجتماع مع التئام مع محبة.

وقال التهانوي : الألفة هي ميلان القلب إلى المؤلف.

وقال الجرجاني : الألفة : اتفاق الآراء في المعاونة على تدبير المعاش¹³

وقد أسماه طوق الحمامة إشارة إلى الطوق من الريش حول عنق بعض الحمام، وهو إشارة إلى السلام والمحبة والأمان ، وهذا الطوق الذي حول عنق الحمامة لا يقطع إلا بالموت فهو يدل على الديمومة والثبات وكذلك هو حال المحبين فإنه يتشكل بينهما طوق من الحب فلا ينقطع ولا يفصلان عن بعضهما البعض إلا بالموت ومفارقة الروح. ورأى أن الحمامة هي رسول الحب والهوى بين العاشقين، والطوق الذي في عنق الحمامة هو حلقة وزينة وأمانة معقودة في عنقها لحمل رسائل العشاق فيما بينهما، وهذه الحالة هي الحالة التي تشكلها الحمامة في تاريخ الشعر العربي.

إذاً : هو كتاب في المحبة والمحبين والعلاقة بينهما وقد ترجم هذا الكتاب وطبع في ١٤ أربع عشرة لغة في المشرق والمغرب وهو يعتبر من أشهر الكتب التي تناولت موضوع الحب عبر التاريخ .

وله أهمية كبيرة في عدة أمور فهو أول من درس الحب دراسة علمية نفسية تحليلية عميقة ودرس معانيه واغراضه، وقد أسس بهذا الكتاب فلسفة الحب العذري الذي انتشر من بعده انتشاراً واسعاً ، فهو كتاب فريد من نوعه ومميز جداً .

وذلك لأننا نجد أن ابن حزم رحمه الله كان يستخدم المنهج الاستقرائي الواقعي، وكان يعتمد فيه على تجارب ذاتية وقصص من حياته كانت قد حصلت معه وحياته من شاهدهم من الناس لكي يستدل من خلالها على وقائع وأحداث وهذا هو منهج العلماء في القرنين العشرين والحادي والعشرين.

-أسباب تأليف الكتاب

يأتي كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الذي ألفه سنة ٤١٨هـ في مدينة قرطبة رداً على رسالة كان قد أرسلها له صديقه أبو بكر بن إسحاق ، ويبدو أن أبا بكر قد وقع في حالة من حالات

الرازي ، مختار الصحاح ، تحقيق يوسف الشيخ محمد ، المكتبة العصرية ، الدار النموذجية ، بيروت ، صيدا ط5، 1999م، ص 120
عدد من المختصين بإشراف صالح بن عبدالله بن حميد ، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم دار الوسيلة للنشر ، جدة، ط4، 13
ج2، ص 49

الحب , وهو كبير في السن وقد أشكل عليه الأمر , ووجد نفسه يتصرف تصرفات لا تليق بكبره وبسنه فراسل صديقه ابن حزم يسأله إن كان ما يعيشه أمراً طبيعياً أم حالة مرضية , فما كان من ابن حزم إلا أن ألف كتابه طوق الحمامة , ووضع فيه تجاربه الشخصية , وضمنه أشعاراً من عنده أيضاً وعرض فيه حالات من العلاقات الإنسانية بين الذكر والأنثى وقد بدأ بذاته فهو يشير إلى أنه كان في ريعان شبابه وفي قصر أبيه في قرطبة وكيف أنه أحب فتاة تدعى " نُعْم " , وكانت بيضاء جميلة شقراء الشعر وأنه بقي على حبها فترة من الزمن , لكنه لم يحظ بالزواج بها وكما أنه يشير إلى أنه أحب فتاة أخرى بيضاء شقراء الشعر إكراماً لها .

مضمون وأبواب الكتاب

لقد جعل ابن حزم كتابه في ثلاثين باباً تكلم فيه عن الحب وحالاته , وذكر أن الأنبياء و المرسلين أحبوا , وأن الحب لا يتعارض مع الدين والمجتمع . وعلى الرغم من أن ابن حزم كان يقف موقف الفقيه إلا أننا نجد أنه يرى أن الحب أمراً مشروعاً في الإسلام غير محرم , فهو أمر طبيعي فطري يقع فيه كل إنسان سواء أكان ذكراً أم أنثى , ويرى أن الحب ليس خطراً لا على حاكم ولا على محكوم .

أما أبواب الكتاب فهي عشرة أبواب في أصول الحب , تحدث فيها عن مختلف أصول الحب وجذوره , ضارباً العديد من الأمثلة وباحثاً في هذه الأبواب العشرة الشيء الكثير عن نفسه وعن شبكة العلاقات الإنسانية في مجتمع قرطبة الارستقراطي , واثنى عشر باباً في أشكال الحب وأعراضه وأوصافه محمودها و مذمومها , وستة أبواب خصصها للأمراض والأفات التي تصيب الحب , وخاتمة جعلها في بابين تحدث فيعاً عن قبح المعصية وفضل التعفف , وكان يسميه حسن الطاعة وترك المعصية , أورد فيه الفكرة التالية مثبتاً فيها فلسفة الحب العذري حيث يقول " الحب – أعزك الله – أوله هزل وآخره جد دقت معانيه لجلالته عن أن توصف فلا تدرك حقيقته إلا بالمعاناة , وليس بمنكر في الديانة ولا بمحذور في الشريعة , إذ القلوب بيد الله عز وجل , وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثيراً وذكر أن الحب معلوم بالفطرة معتمداً في ذلك على قول الله سبحانه وتعالى في سورة الروم " ومن آياته

أنه خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة "14

ومن الأبواب التي ذكرها في كتابه :

*باب علامات الحب :

وقد ذكر فيه إطالة النظر إلى المحبوب , والحديث إليه , والسير إلى المكان الذي يكون فيه المحبوب , بالإضافة إلى الوحدة والسهر والانفراد والانعزال عن المجتمع .

القرآن الكريم , سورة الروم , 19, 14

*باب رؤية المحبوب في المنام: وذكر فيه كثرة رؤية المحبوب في المنام , ويعود السبب في ذلك هو كثرة التفكير في المحبوب في النهار, فقد تقع المحبة لمجرد سماع صوت المحبوب من وراء جدار .

*باب من أحب من نظرة واحدة: وذكر فيه وقوع الحب في لقلب لمجرد نظرة من إحدى الحبيبين.

*باب الإشارة بالعين : وذكر فيه إشارات المحبوب لمحبيه بالعين , فالإشارة بمؤخرة العين الواحدة تعني النهي عن الأمر , وإدامة النظر إلى المحبوب دليل على التوجع والأسف , وكسر نظر العين دليل على الفرح , والإشارة الخفية بمؤخرة العين تعني السؤال .

*باب المراسلة : وذكر فيه المراسلة بالرسائل, وصفات الرسائل بين المحبين وشعور المحب بالسرور عند تلقيه أية رسالة من محبوبه .

*باب السفير : وذكر فيه صفات الوسيط بين المحب ومحبيه , كالكتمان والوفاء للعهد والنصح.

*باب العادل : ذكر في هذا الباب اللوم الذي يقع عليه من قبل الآخرين وخاصة الأصدقاء.

*باب الوصل : ذكر فيه وصل المحبوب لحبيبه, والمواعيد بينهما , وانتظار الوعد من المحب.

*باب الهجر: ذكر فيه هجر المحبوب لحبيبه , وما ينتج عن الهجر من ألم وعذاب سواء للمحب أو للمحبوب.

*باب الغدر : وذكر فيه أن الوفاء من نبيل الصفات , وأن الغدر من أكره الصفات وأذمها .

-أهداف الكتاب :

لهذا الكتاب أهداف قيمة كثيرة خاصة وأنه صادر عن فقيه حليم بليغ كابن حزم الأندلسي حيث نرى أن لهذا الكتاب أهداف تربوية إذ أنه أراد أن يبرز لنا جانب التعفف وقبح المعصية في هذه العلاقات الإنسانية , كما يؤكد ابن حزم أن الحب بين الذكر والأنثى حالة إنسانية جميلة , وتصبح أرقى عندما تتوج هذه العلاقات بالزواج بين العاشقين , وهي تدرج ضمن القيم الاجتماعية والأخلاق .

وفي كتابه طوق الحمامة أراد أن يوصلنا إلى قصة مرادها أننا جميعاً بشر وكلنا مخلوقات لله عز وجل , وليس هناك قداسة لخليفة أو لحاكم , فالقداسة لا تكون إلا لنبي وقد كان يريد بذلك أن يزيح تلك القداسة عن رجال بعينهم نحن أوصلناهم إلى القداسة بأنفسنا .

ومن بين أهداف هذا الكتاب إبراز الجوانب الثقافية والفكرية والفنية لديه , وإظهار مقدرته الفنية بأسلوبه المميز والذي يمتاز بسهولة الالفاظ والابتعاد عن التعقيد مستخدماً في ذلك اللغة السهلة الهينة الواضحة التي تحكي الواقع .ونلاحظ أن ابن حزم قد قرن الحب في كتابه بروح التدين , فهو في كتابه يصف ما يصفه , ويتحدث عما يتحدث عنه لكنه يهدف إلى غاية تربوية تهذيبية .

إذاً هو كتاب أخلاقي من الدرجة الأولى يوضح بين ما هو ممنوع وما هو مسموح , وبين الفرق بين العشق الحرام والحلال , فهو يريد بذلك توعية الأمة والحض على الأخلاق الحميدة. وابن حزم – وفق ما قرأناه من كتبه- يرى أن الحب قائماً بين النفوس في عالمها العلوي قبل أن تتصل بالأجساد وتهبط إلى العالم الأرضي , ويرى أن النفوس البشرية كانت نفوساً نورانية في العالم العلوي , ولكنها عندما هبطت إلى الأرض وسكنت الروح ضمن إطار الجسد خُجبت هذه النفس النورانية في النفس الإنسانية , وهو يهاجم بكتابه فكرة الحب الأفلاطوني الذي يقول " عندما خُلق البشر كانوا ثلاثة أنواع ذكر وأنثى وخنثى , والخنثى يجمع بين صفات الاثنين وأن هؤلاء كان يعبدون الآلهة زيوس لكنهم تقاعسوا في عبادتها فغضبت عليهم الآلهة فأرادت الانتقام منهم فلم تقض عليهم , وإنما أرادت أن توقع بهم العذاب , ويقال أنها شطرت بشرها كما تشطر البيضة , والإنسان لم يقبل هذه القسمة فتمرد على الآلهة , وبقي كل قسم يبحث عن قسمه الآخر ليجتمعا وليكونا فرداً متكاملأ , فالحب يقوم على اجتماع هذا الشطر بذلك الشطر , ويرى أن أول اجتماع بين هذين الشطرين هو الحس , لكن الاجتماع الحسي ينتقل إلى اجتماع روحي نفسي , ومن ثم ينتقل إلى حب عقلي (هذه هي فكرة الحب الأفلاطوني).

أما ابن حزم فإنه يخالف فكرة أفلاطون هذه ويكذبها ويقول إن هذه القسمة التي وردت في كتاب المأدبة قسمة حسية دامية تشمل الجسد والروح , وإذا كان الحب يبدأ بالجمال الحسي , فإنه لا يلبث أن ينتقل إلى الجمال الروحي . فابن حزم يرى أن النفوس كانت في العالم العلوي متعارفة متألفة قبل أن تنقسم باتصالها بالأجساد عندما هبطت إلى الأرض , وبسببها لهذا الجسد فقدت الكثير من نورانيتها .

شعر ابن حزم في كتاب طوق الحمامة

الشعر في كتاب طوق الحمامة حديث طريف يثير كثيراً من التأمل , وهذا ليس بشيء غريب لأنه كتاب في الحب , وهل يكتمل الحديث عن الحب إلا بالشعر , ومن هنا نلاحظ أن الغزل والعاطفة أو الحديث عن المرأة على وجه العموم كان وثيق العلاقة بالشعر منذ نشأته الأولى , والسبب في ذلك هو أن الشعر صورة من صور النفس الذاتية التي ترتبط بالعواطف والمشاعر , لكن ابن حزم في كتابه هذا يقتصر من الشعر على نتاجه هو , وبصور في شعره ما يروق ويحلو له معتمداً على تجاربه الذاتية , وتتسم أشعره في كتابه هذا بالنزعة العذرية التي لا مجال فيها للعبث بصورة المرأة أو العفة لذلك كثيراً ما انجده يفرق بين الحب الحقيقي , ومجرد الحب الجسدي الذي ينتهي بزوال الشهوة .

وهو يورد لنا أبيات جميلة كتبها في تجاه المرأة التي أحبها , وانطباعاً من ذلك ومن مفهومه لعاطفة الحب فإنه لا يجد حرجاً في التعبير عن صدق مشاعره وعواطفه ولعل أروع شعر قاله في ذلك:

وددت بأن القلب شق بمديّة وأدخلت فيه ثم أطبق في صدري
فأصبحت فيه لا تحلين غيره إلى ملتقى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حييت فإن أمت سكنت شغاف القلب في ظلم القبر¹⁵

فهو يتمنى لو أن قلبه شق بسكين وأدخلت فيه حبيبته، لكي تعيش وسط قلبه طالما هو على قيد الحياة،
فإن مات سكنت قلبه وهو تحت التراب .

فنلاحظ أن هذا الفيض من المشاعر الصادقة، وهذا التدفق العاطفي نادراً ما صدر عن الشعراء
الغرب في أشعارهم الغزلية. وفي موقع آخر في كتابه طوق الحمامة يورد لنا شعراً آخر في غاية
الروعة والجمال، وكان قد جاءه خبر موت حبيبته حيث قام فاراً بنفسه، وأنشد هذه الأبيات متحسراً
متلهفاً على محبوبته الفقيدة :

وددت بأن ظهر الأرض بطن وأن البطن صار فيها ظهراً
وإني مت قبل ورود خطب أتى فأتار في الأكباد جمراً
وأن دمي لمن قد بان غسل وأن ضلوع صدري كن قبراً¹⁶

فانطلاقاً من هذا الفهم الراقى عند ابن حزم لعاطفة الحب فإن صورة المرأة ترد في أشعاره مشرقة
ومشرقة في كثير من قصائده ومقطوعاته. ومن الملاحظ أن أشعار ابن حزم في كتابه طوق الحمامة
تمتاز بسهولة

الألفاظ، وبعدها عن التعقيد مع عمق المعنى، فهو أشبه بكتاب يعبر عما يدور في داخله دون التواء أو
كذب، فقد كان أديباً وشاعراً وناقداً قادته طبيعته الجريئة أن يتحدث بصراحة في كل شيء، حتى في
حبه، لذلك نرى أن القارئ البسيط يستطيع أن يدخل إلى شعره ويفهمه ليس لأن شعره تافهاً لا يُعاب به،
لكن لصراحة الرجل في التعبير ووضوح المراد وامتلاكه للمعنى الذي يريد أن يعبر عنه. لهذا نجد أن
كتاب طوق الحمامة ذاعت شهرته فلقى إقبالاً كبيراً، ولا سيما لدى الأوربيين الذين أخذوا ينقدونه
ويحللونه، حيث أنه ترجم إلى عدة لغات كالإنجليزية والروسية والألمانية والفرنسية والإيطالية
والإسبانية. ولقي هذا الكتاب اهتمام الباحثين والدارسين نظراً لموضوعه الإنساني الذي يمس خبايا
النفس في الحب والعاطفة وميول النفس الإنسانية.

وطوق الحمامة جمع بين الإبداعين الشعري والنثري في موضوع الألفة والألاف، بل هو أهم كتاب
على الإطلاق في هذا الميدان إضافة إلى ما يحتويه من جدة في الموضوع، ومن تحليلات نفسية
وأخلاقية عميقة لم يسبق لها .

ابن حزم الأندلسي، رسائل ابن حزم، تح إحسان عباس، المؤسسة العربية للدار والنشر، بيروت، صيدا، ص184¹⁵
ابن حزم، طوق الحمامة، ص220¹⁶

لقد ربط ابن حزم في كتابه طوق الحمامة عاطفة المحبة –التي تربط بين الرجل والمرأة –بالأخلاق , بل إنه ربط بالأخلاق كل ما يصدر عن الإنسان من مشاعر وأفكار وأفعال , فالصدق والعفة والوفاء قمة في السلوك البشري , وقد لأمه البعض من أهل زمانه على أشعاره العاطفية لأنه هو الفقيه المتدين , وقد استنكر بعضهم منه تأليف كتاب طوق الحمامة في الحب فما كان منه إلا أن يرد عليهم مجادلاً مدحضاً أقوالهم من الكتاب والقرآن والسنة , ومن سيرة الخلفاء الراشدين , ويبين لهم أن القلوب بيد الله عز وجل يحركها كيفما يشاء , والذي يلزم الإنسان هنا هو معرفة الصواب من الخطأ في ذلك لأن الإنسان هو عبارة عن قطعة من المشاعر والعواطف , لذا فهو يرى أن قمع هذه العواطف أو إخفاءها يعد نوعاً من الكذب – كما هو الغالب على المجتمع الأندلسي في ذلك الوقت- حيث التدين والتقوى في الجانب الشكلي , والانحلال والشذوذ في الجانب السري من حياتهم , وكثيراً ما أورد أخباراً وقصصاً عن هؤلاء المتدينين في طوق الحمامة انتهت بالفضائح والمآسي .

لذا يحق لنا أن نقول – وبجدارة- أن كتاب طوق الحمامة هو كتاب رسالة قيمة وكتاب فريد في الموضوع الذي تطرق إليه وعالجه , اتفقت مع ما ورد فيه أو خالفته , فهو يظل بالتأكيد كتاباً لا يخلو من المتعة والفائدة والأخبار العجيبة عن الحب والمحبين في المجتمع الأندلسي على وجه الخصوص , وفي سائر الأزمنة والأمكنة على العموم.

الخاتمة

في ختام هذا البحث المتواضع يطيب لي أن أذكر ما فتح الله سبحانه وتعالى علي من نتائج بعد التأمل والدارسة لشخصية ابن حزم ولكتابه طوق الحمامة في الألفه والألاف:

*-إن الإمام ابن حزم –رحمه الله- من جملة الأئمة الأجلاء الذين كان لهم حظ وافر في التفسير, بما أمده الله تعالى من غزارة العلم , ودقة الفهم وقوة الذاكرة , وعلو الهمة.

*-إن ابن حزم كان وحداً من أهم أعلام الفكر والأدب في بلاد الأندلس, وكان له فضل كبير في توعية الناس وتبيين الحلال من الحرام , وتنوير عقول الناس.

*-يعد كتاب ابن حزم طوق الحمامة في الألفه والألاف أحد أهم روائع الأدب العربي القديم, لما امتاز به من الجرأة وحرية الفكر وقوة الشخصية , والذي كان انعكاساً لصورة النشاط العقلي الحر , والحياة الفكرية والترف الاجتماعي الناعم في قرن تميز بنضجه الفكري وازدهاره الأدبي وضعفه السياسي وانحلاله الاجتماعي.

*- التعرف على ابن حزم الأندلس كونه أول فقيه مسلم.

المصادر:

- القرآن الكريم
- أبو زهرة , محمد أحمد , الإمام ابن حزم حياته وعصره وآراؤه وفقهه, دار الفكر العربي , القاهرة 1425هـ
- ابن بشكول, الصلة في تاريخ أئمة الأندلس, مكتبة الحانجي , القاهرة, 1994م
- ابن كثير, البداية والنهاية , دار الفكر , بيروت, 1986
- التلمساني , المقرئ, نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب , تحقيق يوسف البقاعي , ط1, دار الفكر , بيروت 1998م
- الحجي, عبد الرحمن, التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة, ط3, دار القلم, دمشق, 1987
- الحموي , ياقوت, معجم البلدان , دار صادر , بيروت , ط2, ج2, 1995م
- الرازي , مختار الصحاح , تحقيق يوسف الشيخ محمد , المكتبة العصرية , الدار النموذجية , بيروت , صيدا, ط5, 1999م
- الزركلي, خير الدين, الأعلام , دار العلم للملايين , ط15, 2002م
- الشنتريني , علي بن بسام , الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة , تحقيق د. إحسان عباس , الدار العربية للكتاب , ليبيا , تونس , ج1, ط1, 1981م
- الضبي , أبو جعفر , بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس , مطبعة روخس المسيحية , 1884م
- الأندلسي , ابن حزم , طوق الحمامة في الألفة والألاف , تح د. احسان عباس , المؤسسة العربية للدراسات والنشر , بيروت , لبنان , ط2, 1987م
- الأندلسي , ابن حزم , رسائل ابن حزم , تح إحسان عباس , المؤسسة العربية للدار والنشر , بيروت , صيدا
- بن حميد , صالح بن عبدالله, نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم دار الوسيلة للنشر , جدة, ط4, ج2